مقدمة

البحث عن أفق معرفي جديد في تحليل النص الأدبي يتطلّب افتراض مجموعة من الخطوات النظرية، والممارسات العملية والتحليلية، والإجراءات المنهجية تتأرجح بين فكرتي الاختلاف والتجاوز بالمعنى الفلسفي، الأولى تتوخى إيجاد ركائز منهجية وموضوعية مغايرة لما هو مألوف وراكد، والثانية تتحلى بالرغبة في الانطلاق إلى آفاق معرفية تتخذ من السؤال سهمًا لخرق حالة الانسداد المعرفي في قراءة النص الأدبي وتحليله.

لا يمكن لأي استراتيجية نقدية أن تتطلّع بحق إلى آفاق معرفية جديدة، وهي تراهن على الاشتغال بأدوات نقدية وفكرية تعتمد على الرصد والتقييم، بدلاً من الاشتغال على السؤال الذي يطمح دائمًا إلى معرفة حقيقة الموجود لإعادة اكتشاف الوجود. في إطار فلسفة التجاوز، يبدأ النقد بالنص وينتهي إلى الفكر، بين النص والفكر مسافة فكرية تصاغ فيها الأسئلة، وتُطرح الإشكاليات التي تشكّل حتمية معرفية لأي تجربة نقدية تتطلّع حقًا إلى تجاوز مثيلاتها. ليس المهم إعطاء إجابات حاسمة ونهائية حول ماهية النص، لكن المهم القدرة على طرح الأسئلة ووضع شروط التفكير، وإخضاع الفكر للوعي بما يساعد على خلق مسارات معرفية جديدة وغير مألوفة.

قَدَر النقد الأدبي، أو النظرية النقدية، أن يكون معطى نصيًّا؛ بمعنى أن الناتج الفكري يرتبط بالنص الإبداعي، وبما أن الفكر متجاوز دائمًا بطبعه عن طريق السؤال، فإنه ينحت لنفسه سُبلاً مختلفة للبحث عن نفسه داخل النصوص، لأن معالم الاشتغال عنده تُختزل في جدليّة "***النص/ الفكر***"، فالفكر النقدي لحظة الاشتغال على النص يستحضره، ليس كلعبةٍ لإقامة علاقة شكلية معه، لكن كأفق للتأسيس المنهجي والمعرفي، ومن ثمّ يمكن القول: إن النظريات النقدية تتطوّر على أفق النصوص الإبداعية وليس العكس. من أجل سدّ الفراغات الفكرية بين النقد والنص، تطرح الدراسة الراهنة أسئلة محوريّة ورئيسة: أين توجد النظرية؟. في النص؟. أم في الفكر؟. أم فيهما معًا؟. هل النص مُبهم لأن الفكر حوله جعل السؤال هامشيًّا؟. أم لأن السؤال غير قادر على التموضع داخل فكر تقليدي جامد

يـزعجه دائمًـا التحـرر مـن قـيوده الـتي فرضـها على نفسه وما زال يثق بها لأنها تمثل طوق الـنجاة؟. أخـيرًا، لمـاذا يهـرب دائمًـا سؤال الثقافة داخل النص الأدبي؟، ومن المسؤول عن هروب هذا السؤال؟ هل هو القارئ؟، أم النظريات النقدية التي تتخذ مناهج مختلفة في قراءة النصوص لم تلتفت إلى هذا السؤال باستثناء النقد الثقافي؟!.

لا يهـرب سـؤال الثقافة خوفًا على حريته؛ لأنه مستبدّ بطبعه، يهرب لأنه سيكشف عـن عـيوب ثقافـية، وأخلاقية داخل النص تزعج الوعي العربي بشكل عام عندما يجد نفسه في مـواجهة مـع عـيوبه وانجـراحاته، والقارئ يلعب دورًا مهمًا في هذا الهروب، إما لأنه يقرأ الـنص في ضـوء مـناهج لم تلـتفت إلى هذا السؤال، وإما أنه يخشى مواجهة المجتمع، لأنه ـأي سـؤال الـثقافةـ يقـرع الأبـواب المغلقـة، ولا ينتظر جوابًا، الأمر الذي يخشاه معظم القراء في الثقافة العربية اتقاءً لشرِّها.

إن موقـع الـسؤال محـوري في هـذا السياق؛ لأنه يؤسس لأفق معرفي مغاير، ويرسم مـسارًا جديـدًا في الـبحث عـن آلـيات الـتداخل بين الفكر والنص. إن فراغات المعرفة تبقى ملتبـسة داخل فكر يتبنّى نزعات التماثل، ويتعامل مع السؤال ـالذي يملك خاصية ملء هذه الفراغاتـ على أنه شرٌّ أخلاقيٌّ لأنه يزعج منظومة النسق الفكري، فالسؤال يتجاوز مع النص كل التواءات الثقافة؛ لأن ثقافة السؤال تسعى دومًا إلى تفكيك بناءاتها الايديولوجية الصلبة.

إن مـساءلة الموجـود، غالـبًا مـا تؤسس للمغاير والمختلف انطلاقًا من مفاهيم تأخذ مشروعيتها من النظريات التي تجد جذورها في منظومة الاختلاف، بمعنى آخر، تسعى المساءلة إلى إعطـاء الموجود معناه الموضوعي، وليس معناه الذاتي أو الزخرفي المخادع، في هذا السياق يمكن طرح تجربة جديدة تشتغل وفق منطق الاختلاف والتجاوز، يعمد الناقد فيها عند تحليل الـنصوص، إلى التحـرر قـدر الإمكان من هيمنة الأنساق الثقافية المتداولة والمألوفة، والوعي بالقـيود المعـرفية للمفاهـيم التقلـيدية والـتي تـرتبط بالـسياقات الفكرية القائمة على التنميط والـنمذجة، بمـا يجعلـها عاجـزة عن استيعاب الآفاق الفكرية الجديدة التي تطوّر من الأفكار، ولا تـساعد الفكـر علـى مراجعة مفاهيمه، الأمر الذي يجعلها تعمل كعائق معرفي يحول دون استشراف العقل لـ "*اللا بعد*" وتجعله يلتصق دائمًا بالمألوف والمعهود.

الـنقد؛ سؤال الذات من أجل بلوغ المعرفة مرورًا بالوعي. تجربة النقد يمكن اختزالها في درجـة الـتماس بـين ***الـسؤال، والوعـي، والمعرفة***، وإذا بحثنا في تجربتنا النقدية هذا المثلّث الفكـري، سـوف نضع أيدينا على مواطن القصور والخلل في تجربتنا النقدية والفكرية بشكل عـام، ذلـك أنـه حـين يغـيب الوعـي، وينتفـي السؤال، فإن موت النقد سيتحول إلى مصير، وسيـصبح قـيمة نافـية أو سـالبة للمعرفة، ومؤكدة لأنساق ثقافية تغيِّب الوعي؛ لأنها ترتبط بمحددات وثوابت تُدْرِكُ بها العالم من خلال جملة من المعطيات النسقية الخاصة بهذا العالم.

تـنطلق الدراسـة –إذًا– مـن سـؤال الـثقافة، وهو سؤال لا يكتفي بالموجود والحكم علـيه، وإنمـا يمـتدّ إلى استقـصاء المغيّب، والمستبعَد، يتعامل مع النص بوصفه مادة للبحث في المعـرفة الأدبـية، ومـن ثـمّ يرمـي إلى الكـشف عن آليات الحجب، والتحوير، والخداع، التي تمارسـها الإيديولوجيات الثورية من خلال خطابها الشمولي، حيث تفرض هالة من القداسة على هذه الإيديولوجيات، وتُخرجها من دائرة السؤال إلى دائرة التسليم، أو من دائرة المدنَّس إلى دائرة المقدَّس.

إن تعالـق سؤال الثقافة بالنص الأدبي، يقود إلى تعددية المعنى داخله، ويحدث تحوّلاً في الـنص الأدبـي مـن سـقفه اللغـوي الجمالي –النص كائن لغوي جمالي– إلى تجربة ثقافية، فالسؤال ها هنا ينظر إلى النص الأدبي بوصفه" ***علامةً*** على الثقافة، ويستمد قوته وسلطته من حـضورها فـيه، فهـو –أي الـنص– مـادة ثقافـية تختـزل السلوكيات والممارسات، والمفاهيم الـسائدة إبّان عصر المبدع، والعصور السابقة عليه، إلى لغة مراوغة لا تستقرّ عند معنى معين، يـزداد ثـراؤها بتـنوّع المداخل والمنطلقات لقراءتها، ويكون لاحتمالات وعي القارئ بالثقافة وامـتدادها داخـل الـنص الأدبي دوراً مهماً في تأويل المعنى، لأن هذا الوعي الثقافي للقارئ، هـو الـذي يُمكِّـنه مـن تأويـل العلاقـة بين دور العنصر داخل الثقافة، ووظيفته داخل النص الأدبـي، لأن انـتقال العنـصر الـثقافي من حقله الثقافي، إلى النص الأدبي يجعله يحمل دلالتان مـزدوجتان، –دلالـته داخـل الثقافة، ودلالته داخل النص الأدبي– ويشهد النص على تحول

العنـصر مـن كونه ثقافي إلى كونه أدبي، وينتقل العنصر الثقافي إلى النص الأدبي في شكل "أثر" يعكس البنى الثقافية التي يشتمل عليها هذا العنصر الثقافي.

وهنا تحدث النقلة النوعية للقراءة، من قراءة النص ليس بوصفه نصاً أدبيا يرتكز اهتمام القارىء فيه حول المعاني الأدبية والجمالية فحسب، وإنما بوصفه خطاباً ثقافياً يشتمل على الأدبي والجمالي والتاريخي والاجتماعي.. كمكونات للثقافة، ويوغل في تفسير التحولات الثقافية وأثرها في التحولات الأدبية، وكذا العلاقة بين البنية النسقية للثقافة وبنية النص الأدبية واللغوية. فالوعي بالثقافة، يساعد القارئ على تجاوز حدود ما يقرأ، ويجعله في حالة جدل دائم مع ما هو ثابت ومستقر في الفكر والثقافة، وما هو متغير ومتحرك داخل النصوص الأدبية. إن هذا التحول يؤذن بقدوم نمط جديد من القراءة يسمح بحرية السؤال حول "***العلامات***"، "***والمعنى***"، داخل النص وداخل الثقافة، ويساعد القارئ في الكشف عن الأفق المتحرك للثقافة داخل النصوص الأدبية، ولكن هذا التوجه ربما يصدم أفق جمهور المتلقين، لأنه يخرج بعملية القراءة عن السنن والشرائع الأدبية المتعارف عليها، ويفاجئهم بنمط مختلف من المعنى غير الذي يتوقعوه. إن هذا التوجّه سوف يطور بلا شكٍّ أدوات النقد والتقويم، ويساعد على خلق جمهور من القرّاء مختلف، لا يركن لأفق توقعه الخاص عن معنى النص.

واستراتيجية القراءة الثقافية لا تتحدد برؤية الناقد للنص في ضوء قواعد نقدية محددة سلفاً، كما لا تتعلّق بهيمنة الثقافة على الناقد، بل تتضح بوعي الناقد بالثقافة ومضمراتها. وما يحدد إمكانية تحققها هو تماس أوتلاقي البُعد الجمالي مع البُعد الثقافي داخل وعي القارئ، وبالتالي تحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين الأدبي والثقافي؛ لأن المفاهيم لا تتأسس بالاعتماد على بُعد على حساب البُعد الآخر. إن هذه الاستراتيجية تتأسس على الوعي بالبعد الثقافي للعنصر، بالإضافة إلى الوعي بالبُعد الجمالي للعنصر نفسه داخل النص، لأن القراءة الأدبية تتغافل -بحكم طبيعتها وتقاليدها- عن المضمرات النسقية للثقافة، والمعنى يتحدد -دائماً- عبر وظيفة المصطلح والعبارة داخل النص، لا عبر وجوده الجمالي فقط.

وتكشف الدراسة في تصورها التطبيقي عن ثلاثة أبعاد معرفية:

البُعد الأول: يبحث في العلاقة المراوغة والمعقّدة بين الذات المبدعة وهذه الأنساق المهيمنة، لأنها -أي الأنساق الثقافية- تجعل من ذواتها رهائن تتحرك في حدودها لا تتجاوزها، ووعي الذات المبدعة بذاتها أولاً، وبهذه الأنساق ثانياً يجعلها قادرة على ممارسة المساءلة والملاحظة والرصد، تراودها رغبة في إصلاح المجتمع، وإعادة صياغة أنظمته، كنوع من الوفاء بالدين، ولكن تظل الأنساق الثقافية تمارس فاعليتها على نحو ما في المبدع كمصدر مهم من مصادر المعرفة.

والبُعد الثاني: يكشف عن الصراع / الصدام المعرفي المتسائل القائم بين الشاعر والأنساق الثقافية من ناحية، وتحليل التناقضات المضمرة داخل تلك الأنساق والتي يفصح عنها التحليل الثقافي الراهن لخطاب الشعر وتضمرها الثقافة، حيث تتحول فيها الأنساق إلى مقابر يدفن فيها الفكر الخصوصي المغاير للفكر النسقي. ويتغافل عنها التحليل الجمالي للخطاب من ناحية أخري. لعل هذه النظرة تمكّننا من التعرف على الدور المضمر للنسق في الفعل الاجتماعي، وخطورته في نسخ القيم والأخلاقيات الظاهرة داخل الخطاب الشعري القديم.

أما البُعد الثالث: فيتبنى طرح أسئلة تتعلق بالطرق التي تتشكل بها الثقافة داخل النص، واستراتيجيات حضور النسق الاجتماعي الثوري داخل النص الشعري، وهذه التساؤلات لا تهدف إلى فحص المعارف والأفكار، بقدر ما تهدف إلى البحث في استراتيجيات المعرفة، وشروط إمكان الفكر. إنها لا تسعى إلى إظهار آليات جمال النص الأدبي، ومعاييره الأدبية؛ بل ترمي إلى البحث في الأبنية المعرفية والممارسات الفكرية التي تتيح للخطابات أن تتشكل وتنتشر، ولأنظمة المعرفة أن تبدو في وضوح للعيان، للخروج من الدائرة السحرية لإشكالية الذات والموضوع، إلى فضاء السؤال عن الوجود.